

● كانت هذه القصيدة ستظهر في « الثقافة الجديدة » قبل غيرها ، ولكن حدث أن سبقتنا مجلة « الطريق » اللبنانية (ع 5 - أكتوبر 1978) التي نشرها . شعر أدونيس يستحق أن يقرأ في أكثر من مجال ، خاصة وأن لهذه القصيدة نرادتها . وما هي الآن راقصة على صفحاتنا كما لو كانت قد ولدت لأول مرة .

عندما تقاطع صمتك أصوات هذه القصيدة تتحرك يدك في انشعاب ، تنتج ازرار العجة ، تخلع النمل والجوارب ، تدخل فسحة الاغراب والذهور لا نتلكا هذا مكان آخر يجري اليك ، يمعو ما تراه ، ويحضر ما لا تراه كأنه التطريس . كيف نقرا ابجدية الريح والروح ؟ ها هو أدونيس معتر بعشقه ، يوظف الاحجار ، ينسي عينه على نظرة ، يده على اسم ، نفسه في حالة ما ، والنفساء القبيحة .

« كذبوا »

ما تزال طريقي طريقي

والجنون الذي قادني ما يزال امير الجنون »

حين يختار الانتقاد أدونيس ويخضع لسلطة الشعرات ، عشا ان نسال : لماذا يختار الانتقاد أدونيس . ليتقدم كل منكم بكتابه ، وليقرأ علينا بيان خروجه . لا ننفعل ولا ناسف ، أمامنا الحقيقة ، الحقيقة المعزولة المنزلة .

من اين تبدأ ؟ الشعر اسبق من القراءة وسابق عليها ، والشعر سيد الكلام . هذا ما يقوله رومان جاكسون . كل قراءة تعزل عن محو آخر / يقطعة اخرى للبصر ، وفي هذه القصيدة انشباك لا حد له بين محاور الشك واليقين ، الفوضى والانضباط ، التلاشي والتماسك ، الباطن والظاهر ، العتمة والقوى ، القائم والرائل ، الحبسة والكلام ..

لتنترك قليلا من الوقت لقراءة متكاملة . لن نواجه الآن سوى بعض من علائق المكان بالنص الغائب .

تصر هذه القصيدة على مقاربة النص الغائب . وهو ، كما نعلم ، متعدد ولا متناه . منه ما انتقل الى الذاكرة عن طريق البصر - الكتابة ، ومنه ما تسلسل من بين الاذن - السماع ، لا تاريخ له ، فهو مع الطفولة يوجد ، ومنها يكبر . ذهاب واياب ، تذكر ونسيان . تلك عاقته . لا يمكن أن نطلق ، نكتب ، دون ان تكون قد سمعنا ، رأينا . بديهية ، نعم ، ولكن ليست كذلك دائما .

وقصيدة ادونيس هي هذه النصوص كلها : مرئية او مسموعة . لا فرق بين كلام الناس في الشارع وكلام الكتب ، كل يختار سبيله الى القصيدة ، بعد المرور عبر قنوات الوعي واللاوعي . لكل مرحلة تاريخية ، وكل فنة اجتماعية قانون خاص لقراءة النص الغائب . يختار أدونيس قانون الحوار ، كأساس لإعادة الكتابة . أصوات هذا النص تلنح في صداعة الطريق ، لا نفاجا حين ينتهي اينا كلام عن المحبة ، قول عن قوة البصيرة ، اعلان امرأة عن شهوتها ، كل يراحم غيره ، والتناقض الحقيقة .

يتحول النص زويدة تعيد ترتيب المكان ، وما هو النص ان لم يكن التناقض الغالص ؟

● ان المكان (فضاء المغرب) هو الجسد الذي تفككه وتركبه هذه القصيدة . انها الاستمرار في قراءة صوفية - اعني الكشف . قراءة تستحضر

الرؤية الباطنية بجموح بيدع الحوار ، كل شيء ينحل في نقضه : الحي / الحاد ، المنطوق / المكتوب ، البعيد / القريب ، والكثيف سظلة الباطن على الظاهر ، محو العابر وترسيخ الجوهر .
ليس أي مكان . يختار أدونيس مراكش - فاس مجموعة أولى ، أنها المتن . مكان يلقي مكانا آخر : الدار البيضاء - كنموذج للاستيلااب .

هناك أكثر من قراءة للمكان المغربي . قراءة رسمية (يكفي كتاب « الاستقصا ، لاعطاء فكرة عنها) ، قراءة استعمارية (مهمة في كتابات القرنين 19 ، 20) ، قراءة سياحية (راجع منشورات مندوبيات السياحة) ، قراءة الاستيلااب (أغلب ما كتبه الصحافيون المشاركة عن المغرب) ، قراءة شعبية (غير مدونة) .

إن المكان موجود موضوعي ، لا يتغير ، ولكن القراءة هي التي تقربه منا / تبعده عنا ، بفوائدها الخاصة . نحن في مواجهة بينيتين : بنية المكان وبنية القراءة . طمنا ، لكل من القراءات الرسمية ، والاستعمارية ، والسياحية ، والاستيلااب سلطة ، أنها المدون والسائد . أما القراءة الشعبية فهي شريفة أنا ، وأسيرة أنا . قراءة أدونيس تانلف مع البنية العميقة للقراءة الشعبية ، وتختلف عن القراءات الأولى ، تلفيها . أنها قراءة مضادة ، تتبنى الانشقاق والنقصان .

● قبل مراكش - فاس هناك طنجة كمدخل لقراءة المكان المغربي . هكذا تتفتح المجموعة الأولى على بدايتها تاريخيا وجغرافيا :
« انها طنجة ، المدي الذي يحارب القلب »

ولا يسلم العين .
يمكن لنا بدورنا أن نفكك ونركب المكان المقروء حسب مجموعتين صغيرتين :

م . ا . : سلاسل فرعية :

- 1 / طنجة = الصيغين + طريق الميحييين + باب العصا + باب البحر + باب البارود .
2 / مراكش = قصر البديع + جامع الفنا .
3 / فاس = وادي الشرفاء + جامع القرويين + جبل زلاغ + باب المحروق + باب الفتوح .

م . ب . : تقاطع الامكنة :

- 1 / ايموزار - طنجة .
اصيلة - اعمادير .
2 / لا جامع الفنا ، لا جامع القرويين .
3 / مراكش ، ايفران ، ايموزار ، فاس .
4 / بيروت دمشق الرياض بغداد القاهرة .
5 / مراكش دمشق القاهرة
بغداد القدس فاس

● تعتمد المجموعة (ا) على القراءة الاستعمارية ، والقراءة التاريخية النقدية ، في الأولى يحيى الموات (باب العصا - باب البحر - باب البارود - جامع الفنا - باب الفتوح) ، هذه تسميات واقعية ، توجد في كل من طنجة ومراكش وفاس ، وقد توجد بعضها ، أو ما هو قريب منها ، في مدن مغربية اخرى . هذه الاستعمارة التي هلكتها الاستعمال اليومي ، وأفرغها من شاعريتها ، نحسها تنهض من رمادها ، تتحول عن دلالتها ، تصبح بدخلا لعالم ما . كم تظهر أسماء العصر الثالث حقيرة ، وحكم في القديم من عناصر التغيير في الثانية يخرج على القراءات السائدة للمكان المغربي ، فيقول ما لم يقله الآخرون . نموذجان فقط :

« قصر البديع » في هذا النص معوله في النصوص الاخرى . نحن الان امام الاسرى ، اختناق الصدق ، الزنانات ، حشرجات القنكي . ياخذ النص صفة الشهادة ، ويلبس المكان الذاكرة . من قبل كنا نقرا : وهذا البديع دار مربعة الشكل وفي كل جهة منها قبة رائثة الهيئة وتحف بها مصانع اخر من قباب وقصور ودور فظلم بذلك بناؤه وطالت مسافته » ، كنا نقرا ايضا قصيدة الفشتالي ، في القراءة الساعذة نقل للتسمية من الشعر الى المعجز ، هذا كتاب البديع لابل المعتر ، وهذا قصر البديع للمنصور السعدي ، وليست المقارنة غريبة . بديع من ؟ واسر من ؟ مرحبا بك ايها العوار .

تفخذ الى فاس من « وادي الشرفاء » . هذا مدخل الدم ، نفسى الداخل الاخرى . اي دم ينطقه ادونيس ؟ واي شرفاء ؟ تظلمن العين المستلبة الى الاجترار ، تنتهي عند القباب كليلي للما بعد ، والما فوق ، اما هنا ، فان الدم هو اللغة الاولى ، ابتداء من ابن ابي العافية السخي ذبح الشرفاء . الادارة الى العصر الحديث ، حيث ذبح اكثر من شريف . تتقدم اليك فاس من خلال التاريخ المنسي ، وبين الحقيقة والحقيقة نأخذ القراءة موقعها النقفي ، لا تتكروا الجنس ، لبيست فاس هنا رمزا للبرجوازية المغربية ، ولكنها بالاحرى فاس الدامية ، فاسنا .

● في المجموعة الثانية (ب) نلاحظ تقاطع الامكنة ، يمتزج الهنا بالهناك ، والاحتمالات واحدة . هذا ما لا نذكره القراءة الساعذة للمكان المغربي التي تنطلق اساسا من التوازي : المشرق / المغرب ، جامع الفنا / جامع القرويين ، مراكش / فاس ، ايهوزار / طنجة ، اصيلة / اغادير ، تجنح القراءة الساعذة الى اقرار النزعة الذرية من ناحية ، وابداء التراتب من ناحية ثانية . هذه القراءة تبرر الايديولوجيا ، اي ان المكان المغربي - العربي مفتت في اصله الى وحدات جزئية ، يربط بينها كلام او شبه كلام ، اي انها فرق قبل ان تكون علاقة ، فيبقى الكلام خدعة . ينفثح المكان على جرحه عند ادونيس :

« عسس يطوق الهواء ويكبح هديل الحروب

عسس يكسر اعناق الشجر ويدهام البورد »

خصيصة المكان المغربي - انه معلق بين التدوين والرمح . من هنا تطلع الوحدة ، ولاجله توجد . ان القراءة المتوازية لموسى وطنيا وعربيا ، توزع العالم العربي حسب النفوذ والمصالح . قراءة تشرع للاستدلال والمغالمة بين الفئات المسيطرة . دمشق في مكان ما ، وفاس في مكان ما ، واغادير في مكان ما ، اماكن لا مكان . موجودة بنفسها لا بغيرها . مراكش وفاس في الصيغة المضادة نواة للتقاطع الامكنة الاخرى ، لا غياب بل الحضور ، لا قلب بل تصميم الزناتن ، ولون الدم ، وحالة التطويق .

بين التوازي والتقاطع مسافة الوعي الحقيقي .

● يعني هذا المكان المغربي المنسي مهلاذ مكان آخر ، يناقض ما تراه العين الساذجة ، يسميه ادونيس ، فيخلط بين الحقيقة والمعجز ، يبذل رمزا برمزا ، ورقة بوزقة ، حاضرا بمستقبل . تخييل لعلامة توجد هناك . نكتفي بالاشارة .

● ان المكان الذي يقراه ادونيس غير منفصل عن الزمان ، والزمان نفسه غير منفصل عن الانسان . لسنا ، اذن ، امام مكان لا تاريخي ، مكان ميتافيزيقي ، وبالتحديد قراءة ميتافيزيقية للمكان المغربي . لسنا ايضا امام قراءة لاهوتية ، فما بمعوها هو النقد المزدوج . مكان ادونيس يناهض النص الغائب السائد ، له العنف والمواجهة ، وليس من معبر اليه سوى الوعي النقفي وقد استوى في فضاء الكشف ، وتلك قصيدة ادونيس .

محمد بنيس